

رجلا عالماً مقدماً شاعراً مفلحاً، وخطيباً مصقلاً، فلهُ في شعره شدة كلام العرب، وحلاوة كلام المحدثين، ولا يزال قدرمي في شعره بالمثل السائر، والمعنى اللطيف، واللفظ الفخم الجليل، والقول المتسق النبيل، وقصيدته لها طول وامتداد، وإنما نملي منها ما اخترنا من نحو ما وصفنا، ثم يختار من القصيدة قرابة أربعين بيتاً، لا يرى نفسه في حاجة إلى أن يشرح كلمة منها.

أما الأساس الذي بني عليه المبرد نقده، فهو الأساس الذي يتخذه أنصار القديم نبراساً لهم، وأنصار القديم في الشرق والغرب، إنما يتذوقون من الآداب ما كان على طراز المثل الأعلى لهم، وهو الأدب القديم، وهذه الآداب تمتاز بصفات تكاد تكون واحدة فيما يتعلق باللفظ وبالمعنى، ومن أبرز هذه الصفات الوضوح، ومتانة الصياغة وجودة الأسلوب، والبساطة. وهذه الصفات هي التي يدور عليها _ كما لاحظت _ كل نقد المبرد، فهي كالأساس لكل نظرة من نظراته النقدية، ويمكن أن نرجع إليها كل لحظة منه في الحكم على كلام بال جودة أو الرداءة.

فمن أول ذلك (البعد عن الإفراط) وذلك حيث يقول معلقاً على قول الشاعر:
فلو أن ما أبقيت مني معلق بعود ثمام ما تأود عودها (1) و غبي

فقد وصفه بالإفراط والتجاوز، ونظر له بقول القائل:
ويمنعها من أن تطير زامامها.

ثم قال:

((واحسن الشعر ما قارب فيه القائل إذا شبه، وأحسن منه ما أصاب به الحقيقة، ونبه فيه بفظنته على ما يخفى عن غيره، وساقه برصف قوى، واختصار قريب، قال قيس بن معاذ:

(1) الثمام نبت ضعيف واحدته ثمامة.